التاريخ: المفهوم والاستثمار في الرواية

عبد الباسط طلحة طالب دكتوراه

المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف - ميلة

ملخص:

تتبع هذه الدراسة مفهوم التاريخ، وطرق وكيفيات استثماره داخل الرواية، فمعلوم أن الرواية العربية والجزائرية نجدها تعود بقوة إلى الحوادث التاريخية، لكن هذا التوظيف يختلف من كاتب لآخر، فهو يوظف بتقنيات وطرق متعددة، فمن توظيف الحدث إلى استحضار بعض الشخصيات التاريخية، إلى استعماله كرمز بهدف معالجة قضية، بل أبعد من ذلك فقد يُفكك التاريخ الرسمي لنطالع بُعدا تاريخيا آخر لكن ما يهمنا هو الوقوف على أبعاد هذا النزوع ومعرفة الرسائل المبتغاة من وراء ذلك وطرق استغلال التاريخ داخل المتون الروائية.

الكلمات الدالة:

- الرواية – التاريخ – الرواية التاريخية

Abstract:

This study deals with the concept of history and the ways and methods of its investment within the novel. As is well known, the Arab and Algerian novel tend to strongly refer to historical events. However, this utilization varies from one writer to another as they employ it in multiple techniques and ways as the employment of the event, the evocation of some historical figures and its use as a symbol designed to address the treatment of some issue. Beyond that, he might dismantle official history to read some other historical dimension. But what concerns us is to stand on the dimensions of this tendency, to know the intended messages behind it, and to know about the methods of using history in fictional narratives

Key words: history- novel – historical - novel

تمهيد:

تعتبر سمتا الدقة والموضوعية من أبرز ما يختلف به الخطاب التاريخي عن باقي الخطابات والمعارف التي تنتجها الإنسانية قاطبة، فهو يحتل مكانة مرموقة بين فروع المعرفة ويشتغل على درجة كبيرة من العلمية، ولعل المتتبع لمسار البحث التاريخي يلاحظ أنه كان محط التقاء وتناضر في الآن نفسه عند مجموعة من الباحثين، ويأخذ الطابع السردي للتاريخ كنقطة مشتركة مع الرواية التي أضحت ديوان العرب في الفترة الأخيرة، مركزا مهما في العودة للحديث عن كيفيات استثمار هذه المعرفة داخل الإبداع الأدبي، فكما هو معلوم التاريخ يحيل إلى حدث وقع بالفعل وهناك مراجع ومصادر تدل على الحدث وتدعمه، لكن الرواية تمتاز بعنصر التخييل فهو-إن استعملنا مقولة الشكلانية الروسية- عنصر مهيمن على بنائها وإن اتكأت على مجموعة من المرجعيات، التي يعتبر النص التاريخي أهمها، فهي تطرح مجموعة من القضايا والآراء والمواقف التي تنشُد من خلالها إبداء رؤية، وهذا ما نبتغي الوصول إليه.

1- مفهوم التاريخ:

يتفق الباحثون المعاصرون أن كلمة (تاريخ) ليست عربية بالعودة إلى مدلولها الذي نستعمله كمقابل لحوادث الماضي، فهي لم ترد في القرآن الكريم، ولا في السنة المطهرة و"أغلب الظن أنها كلمة فارسية الأصل، ومع ذلك فهي في العربية مقابلة لكلمة history عند الأوروبيين، لكن القضايا الفلسفية المرتبطة بفكرة التاريخ تُعد من تطورات الفلسفة الحديثة، وهي تختلف كليا عن مفهوم التاريخ عند العرب" [1]، وذلك راجع إلى كون هذه الكلمة استعملت عندهم للدلالة على الوقت والزمن، ولم ترتبط بتطور التفكير الفلسفي حول الإنسان.

إذ ورد في المعجم الوسيط ما يلي:" أَرَخَ إلى مكانه، أروخاً: حن، وأرّخ الكتاب: حدد وقته وتاريخه، أرّخ الحادث ونحوه: فصَّل تاريخه وحدد وقته"[2]، فالتاريخ بهذا المعنى يحيل إلى وقت حَدَثٍ جرى داخل إطار مكاني ما.

وورد في لسان العرب:" التأريخ: تعريف الوقت، والتوريخ مثله، أرّخ الكتاب ليوم كذا: وقته"[3]، فهو يحيل كذلك على الوقت والزمن.

أمّا في اللغة الفرنسية، فالتاريخ histoire كلمة مشتقة من الكلمة اللاتينية historia التي من معانيها البحث والتحري والبيان والاستقصاء بالدراسة والتحليل عن أمر ما[4]، فهو في المدلول الأجنبي علم يتناول حياة الأمم والشعوب والحضارات بالبحث والدراسة.

أمّا من الناحية الاصطلاحية فجل التعريفات التي وقفنا عليها تؤكد على أنه ضرب من ضروب المعرفة الإنسانية، فالتاريخ " حكاية عن الماضي، أو هو مجموعة من الأحداث والوقائع الإنسانية التي مضت وانتهت لكنها قابلة للتحول والتفسير والتأثير، وهي أحداث ووقائع تترك بصمتها وآثارها في الحاضر والمستقبل، وتسهم في تشكيل السلوك الإنساني عامة"[5]، فهو تسجيل لحقبة ماضية من خلال ما جرى من أحداث ووقائع، كما يحتمل عدة قراءات، وتنتقل معانيه وتفاسيره حسب كل مرحلة.

أمّا عن أصل التاريخ، فيورد الباحث فيصل دراج أنه:" كلمة يونانية الأصل، تدل على استقصاء الإنسان لواقعة إنسانية سعيا إلى التعرف على أسبابها وآثارها، وهذا المعنى قصده هيرودوت (القرن الخامس قبل الميلاد) في تاريخه المشهور، حين استقصى أعمال البشر، وأعرض عن أعمال الآلهة(...) إذ فرّق بين الأسطوري الذي يحيل على الآلهة والتاريخي الذي يحيل ويكتفي بأخبار البشر"[6]، فما ينتجه البشر من أعمال وأفعال في حقب ماضية تدخل ضمن إطار التاريخ باعتباره وقائع حدثت بالفعل، تدل عليها ما خلّفه البشر.

لذا نجد ابن خلدون يعرفه بأنه " خبر عن الاجتماع البشري الذي هو عمران العالم، وما يُعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات، وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الأحوال"[7] فجوهر التاريخ هو الإنسان وما يمكن أن يتصل به من منجزات سياسية واقتصادية وفكرية وثقافية، ووفق هذه الرؤية، صح أن يرادف التاريخ - حسب ابن خلدون- مصطلح الخبر، باعتباره نقلا لمجموعة من الأخبار.

يكتسي التاريخ بُعداً علميا على اعتبار أنه" علم موضوعي مبرأ من الأهواء والمصالح له أسانيده ووثائقه والجهود المتعددة التي أَنجزت مناهجه، بل له من الهيبية والوقار ما ينصبه علما شريفا في بعض التصورات"[8] وهذا مردّه إلى الناحية العلمية المنهجية التي تقتضي بعض الأطر والآليات في التعامل مع الحوادث والوثائق المستعملة.

ويرى عبد الله العروي أننا " عندما نتكلم عن التاريخ نقصد بالكلمة شئين مختلفين: مجموع أحوال الكون في زمان غابر ومعلوماتنا حول تلك الأحوال"[9]، وإن اتكأ على مفهوم ابن خلدون، فهو يضيف فعل المعرفة عن الأحوال السابقة، والذي لا يتأتّى إلاّ لشخص معين، يتميز بطابع الإحاطة والمعرفة.

هذا الشخص العارف هو المؤرخ، الذي يتجلى جهده في " تحقيق وسرد ما جرى فعلا في الماضي"[10]؛ باعتماده على عينات ووثائق تكون الشاهد والدليل على ما حدث.

وينحو سيد قطب في مفهوم التاريخ مَنحًا آخر "فالتاريخ ليس هو الحوادث، إنما تفسير هذه الحوادث، واهتداء إلى الروابط الظاهرة والخفية التي تجمع بين شتاتها، وتجعل منها وحدة متماسكة الحلقات متفاعلة الجزئيات ممتدة مع الزمن والبيئة امتداد الكائن الحي في الزمان والمكان"[11] إذ يتشكل التاريخ من خلال جملة التفاسير المتولّدة عن مجموعة الأحداث، بما في ذلك تلك القصص الجانبية.

يحيل هذا المفهوم إلى اقتراب التاريخ من بعض المعارف الأخرى التي تنتجها الإنسانية، لكنه يختلف عنها في أن لكل معرفة مجالها المحدد إذ "التاريخ يتعارض مع الشعر لأن موضوع التاريخ واقعي، وموضوع الشعر وهمي، كما يتعارض مع الفلسفة لأن موضوعه جزئي، وموضوعها كلي، آلته الخيال وآلتها العقل"[12] فالشرط الواجب توفره في المادة التاريخية هو الواقعية والعامل الزمني.

على اعتباره (التاريخ) " المادة المنجزة التي مرّ عليها زمن يضمن حدود المسافة التأملية بينه وبين تلك المادة"[13] لأن العامل الزمني يعد مرتكَزًا مهما في تشكيل المادة القابلة للدراسة ويمثل التاريخ " مصباح كشاف يدور حول الوجود الإنساني ويلقي ضوءًا عليه، وعلى إمكاناته غير المتوقعة التي لا تتحقق وتظل غير مرئية ومجهولة في الفترات الراكدة عندما يكون التاريخ ساكنا"[14]، إذا التاريخ في مجمله يدور حول وجود الإنسان، يعود إليه ليفسّر واقعه وليربط حيثيات حياته مع الماضي، ويعيد قراءة وفهم ما حصل، ولو أسهمت هذه العودة في إعطاء بُعدًا آخرًا يتماشى مع البعد الواقعي لكنه ينزاحُ عنه بواسطة أدوات المتخيل، فينسج عملاً آخر انطلاقا من المرجع لكنه لا يتقيَّد به.

2- *بين الرواية والتاريخ:*

إذا كان التاريخ يسجل ويدرس أحداث الماضي، والرواية جنس أدبي مادتها الخيال فهل من الممكن القول أن الرواية تحاكي التاريخ؟

يتمظهر التاريخ داخل الرواية من مسلمة مفادها أن " الخطاب الروائي يأخذ موقعا خاصا في تشييد الحقيقة الكونية، فالروائي يشتغل وفق رؤية شمولية كونية يتغلب فيها الجانب التخييلي على الجانب الواقعي، في حين يستند المؤرخ على منظومة من القيم والأفكار اليقينية ذات البعد المقصدي والنفعي وعليه تتحول صورة الكتابة الروائية إلى كون متخيل

داخل روح تاريخية الهدف منها هو محاولة وصف الراهن أو الحاضر المربك، هذا الحاضر الذي لا تتضح معالمه إلاّ من خلال الماضي التاريخي"[15] فمجال اشتغال الرواية يختلف عن مجال التاريخ، وإن تقاربا في اتكائهما على السرد.

أما من ناحية أخرى، فيذهب الباحث حبيب مونسي إلى القول أنه " ليس من العسير على الدارس أن يسجل سلسلة الفروق التي تميز الرواية عن التاريخ جنسا، غير أنه حين ينظر إلى الألفاظ في دلالتها المعجمية الأولى سيجد تداخلا بين اللفظين، حين يلمس أن الرواية هي التي تسجل التاريخ وأن ليس للتاريخ من قيامه إلاّ بها"[16]، فالتاريخ الذي نقرأه اليوم هو في محصلة الأمر عبارة عن مرويات وسرود كان للخيال الجمعي أو الرواسب الإنسانية دور كبير في نقله إلينا، فكما تمت الاشارة فالسرد هو القاسم المشترك بينهما فهنالك شيء من التقارب" بين التاريخ والسرد التخييلي فإعادة تشكيل الماضي هو من عمل المخيلة، والمؤرخ أيضا بحكم العلائق المشار إليها بين التاريخ والحكي"[17] فجملة الأحداث والوقائع التي تتبلور يحتمل أنّها "إمَّا أن تكون وقعت بالفعل أو يعتقد أنها وقعت بالفعل، غير أنّه ما من سبيل لإدراكها بصورة مباشرة "[18] وإنما تدرك بواسطة ما دوِّن حولها من وثائق ومراجع.

ولعل الأمم والشعوب وَجدت في فعل السرد ما يحفظ كيانها فاستغلته لنقل تجاربها وواقعها "فالأمم كما اقترح أحد النقاد هي ذاتها سرديات ومرويات، وإن القوة على ممارسة السرد أو منع سرديات أخرى من أن تكون وتبزغ لكبيرة الأهمية"[19].

هذا الأمر فيما يتعلق بجانب السرد الذي يعتمده التاريخ وتعتمده الرواية، فلا شيء يفلت من سلطته وحياتنا مبنية على فعل السرد لكن إذا تم النظر إلى الرواية باعتبارها "جنسًا أدبيا كان لنا منها شأن آخر غير فعل الحكي الذي يستعيد الذكرى ويرويها إنما هي إنشاء وتكوين عبر اللغة لعالم متخيل أو حقيقي، فإن كان الواقع المحكي متخيلا كانت حكاية أو رواية أو قصة "[20] فالرواية لا تنشد الحقيقة عكس التاريخ الذي يجتهد في إثباتها ودفع كل شبهة عنها.

ومن بين الاختلافات الجوهرية والدقيقة بين مادتيهما أن "علم التاريخ والرواية يتوزعان على موضوعين مختلفين، يستنطق الأول الماضي، ويسائل الثاني الحاضر، وينتهيان معا إلى عبرة وحكاية، بيد أن استقرار الطرفين منذ القرن التاسع عشر في حقلين مختلفين لم يمنع عنهما الحوار، ولم ينكر العلاقة بينهما"[21] فمهمة الرواية -وإن بنيت على التاريخ-ليست معالجة أحداثه، إنما تبيان أثر الماضي في الحاضر، عكس التاريخ الذي يبقى وفيا للحقبة التي يعالجها.

وإن اتخذت الرواية بعض الأبعاد التاريخية " فالأدب في جوهره وثيقة فنية جمالية فكأن المادة التاريخية -الأحداث والرموز والوقائع- تدخل في شرايين الأعمال الأدبية أو في نسيج النصوص الشعرية والنثرية، مع ملاحظة أن هذه الأعمال تتحول أو يجب أن تتحول ليصبح لها صبغة جديدة هي الصبغة الفنية، لأن الأدب أدب والتاريخ تاريخ، على الرغم من تأكيد التفاعل الدائم والتأثير المتبادل بينهما"[22]، فعلى الرغم من تقاربهما فإن كل مؤثر يدخل في ثنايا النص الروائي يكتسي صبغة جمالية تخييلية صرفة، فالأدب "لا يحاكي التاريخ ولا يصف أو يصوّر الأحداث التاريخية"[23] ومع هذا الاعتبار تبقى الرواية -على غيرها من الأجناس الأدبية- أقرب إلى التاريخ فهي تحتاج إلى " أحداث وشخصيات وزمان ومكان"[24] هذه الفواعل السردية، يحتاج إليها التاريخ في صناعة بحثه ومجال الاهتمام بينهما يجعلهما يتنافران إذ " يهتم التاريخ باستخلاص العام والمشترك، وتهتم الرواية بالفردي والخاص والجزئي"[25] فالتاريخ يعبّر عن منظور جماعي، بينما الرواية تعبر عن منظور فردي وفق تفاصيل دقيقة.

3- الروائي والمؤرخ:

يُعتبر الروائي صاحب مشروع جمالي يحاول لفت القارئ نحو قضية ما أو جزئية معينة في قالب فني تخييلي صرف، بينما يجتهد المؤرخ في إثبات الحقائق وفق منظور أخلاقي وذلك من خلال العودة إلى المراجع والوثائق اللازمة، لكنهما يختلفان في نقاط ويلتقيان في أخرى.

3-1- نقاط الاختلاف:

يلخصها شكري عزيز ماضي في ما يلي[26]:

– يختلفان من حيث قيمة عمل كل منهما، فالمؤرخ ينشد الحقيقة ولا يريد غيرها، بينما يسعى الروائي نحو الجمال والتأثير على حساب الحقيقة والأخلاق.

– يتقيد المؤرخ بالوقائع التاريخية بدقة متناهية، فيكون مقيدا بأحداثها ومعطياتها، عكس الروائي الذي تتوفر له حرية كبيرة، فبإمكانه تعديل وتحوير وانتقاء المادة الملائمة لعمله، فالأمانة عنده تخرج عن غايتها لتتحول إلى وسيلة فنية.

– يختلفان من حيث الموضوعية، فالمؤرخ مطالب بأن يتخلى عن أهوائه وميولاته أي أن يرجح عقله دائما، بينما الروائي فيحكم عواطفه، إذ نجده ينحاز تجاه قضية ما، ولا يجد حرجا في الدفاع عنها، فيعكس ذلك توجهه أو انتمائه.

– يهتم المؤرخ بمضمون عمله، ولا يولي للشكل أهمية تذكر، عكس الروائي الذي يهتم بالشكل الذي يبلور المضمون ويعطيه قيمته الفنية الجمالية.

– تكون لغة المؤرخ دقيقة، صارمة منضبطة، وإن شئنا قلنا أنّها علمية تقريرية، هدفها الأساسي هو التوصيل، بينما لغة الروائي تشتغل على الكثافة والايحاء والترميز، فهي تصويرية غايتها جذب الاهتمام والتأثير في المتلقي.

3-2- نقاط الاتفاق:

لكن يلتقي الروائي والمؤرخ في بعض النقاط، التي يمكن تلخيصها في الآتي[27]:

– يقدم كل منهما حقائق ومعلومات عن قضية أو فترة معينة فالمؤرخ يقدم حقائقه عن طريق التقرير والآخر عن طريق التصوير فهما ينشدان شيئا معينا.

– يفرق كلاهما بين ما هو ظاهر للعيان، وما هو باطني متخفي وما هو معروض وما هو جوهري.

– يهتم المؤرخ والروائي بخدمة الإنسان وتطويره وتنويره فيجتهد كل منهما بمحاولة تزويد القارئ بمجموعة من الخبرات عن الماضي والحاضر واكتناه المستقبل، أي يحاولان تعريفه بماهية وجوده وأسرار العالم من حوله، بطريقة مباشرة (التاريخ) أو بطريقة إحالة ضمنية (الرواية).

– قد يتعرض كل من التاريخ والرواية إلى الطمس والتزييف والرفض فهما" يتعاملان مع المتحول قاصدين عبرة تتأمل طبيعة إنسانية"[28] محاولين فهمها واكتناه أسباب وقوعها.

4 - ***مستويات ظهور التاريخ في الرواية:***

ذكرنا فيما سبق أن التاريخ يمتاز بالدقة الموضوعية وملامسة الحقيقة، وذلك انطلاقا من كون الحوادث التاريخية تتكئ على مصادر ومراجع، عكس الرواية التي تنحو منحى التخييل، ومع ذلك فهي تتكئ على بعد مرجعي، هذا البعد يضفي عليها مسحة جمالية.

وإن عاد الروائي إلى التاريخ، فهي محاولة لإعطاء بعد رمزي أو إيديولوجي لما يكتب فالرواية " تنشد التواصل الحضاري والفني وربط الماضي بالحاضر، ويعود هذا إلى المكانة التي أصبح يتميز بها الأدب في استجماع الأدوات الممكنة لتأكيد هويته وحضوره، ووجد في التراث بُعدًا جماليا استغلّه الكاتب لمراجعة التاريخ"[29]، فالتاريخ هو أحدُ النصوص الأصلية

تستمد منه الرواية بعض الجزئيات أو المواقف لتعيد طرحها في قالب فني جمالي ينشد التأثير في القارئ وتختلف وظيفة التاريخ وطرق استثماره من رواية لأخرى ولعل أبرز ما توصلت إليه، يمكن إدراجه في المستويات الآتية:

4-1- التوظيف المباشر لأحداث التاريخ:

تنهض هذه الطريقة على تقديم الرواية في قالب تاريخي مباشر، أي أنّ أحداثها وشخصياتها ومكانها، عناصر مستمدة من التاريخ أي أنها قد جرت بالفعل ومثال ذلك ما يسميه النقاد بالرواية التاريخية التي " تثير الحاضر ويعيشها المعاصرون بوصفها تاريخهم السابق بالذات، وتضع الأحداث التاريخية في الخلف"[30]، فهي رواية تنهض على إثارة حدث تاريخي، وتقدم وفق رؤية محددة للقارئ المعاصر، وفي الأغلب تكون الإحالة مبنية على مجموعة من التواريخ التي ورد ذكرها في المتن، تروم إعادة خلق الحدث التاريخي في قالب جديد يسهم في تقديم قراءة جديدة له.

ويشكل التاريخ فيها مرجعية مهمة، لكنها تبقى خاضعة لعنصر مهم من عناصر العمل الروائي ألا وهو فعل المتخيل، فهي حسب الباحث سعيد يقطين " عملا سرديًا يرمي إلى إعادة بناء حقبة من الماضي بطريقة تخييلية، حيث تتداخل شخصيات تاريخية مع شخصيات متخيلة، وإننا في الرواية التاريخية نجد حضورا كبيرا للمادة التاريخية، لكنها مقدمة بطريقة إبداعية وتخييلية"[31] فهي توظف الحدث التاريخي ليكون موافقا لبعدها الجمالي.

وينتج بحكم هذا التفاعل بين التاريخ والخيال" قصة خيالية، ذات طابع تاريخي عميق"[32]، لكن يبقى المسلّم به أن التاريخ يكون متجليا بصورة كبيرة، ولا يكون خافتا إلا في حالات محددة.

يكتسي التاريخ في هذا المستوى بعدا تعليميا صرفا، وهذا ما صرّح به أحد رواد هذا الاتجاه جورجي زيدان إذ يقول: " رأينا بالاختبار أن نشر التاريخ على أسلوب الرواية أفضل وسيلة لترغيب الناس في مطالعته، والاستزادة منه، وخصوصا لأننا نتوخى جهدنا في أن يكون التاريخ حاكما على الرواية لا هي عليه كما فعل بعض كتبة الإفرنج وفيهم من جعل غرضه الأول تأليف الرواية، وإنما جاء بالحقائق التاريخية لإلباس الرواية ثوب الحقيقة، فجرّه ذلك إلى التساهل في سرد الحوادث التاريخية بما يضل القراء، أما نحن فالعمدة في روايتنا على التاريخ وإنما نأتي بحوادث الرواية تشويقا للمطالعين، فتبقى الحوادث التاريخية على حالها، ندمج فيها قصة غرامية، تشوق المطالع إلى استتمام قراءتها، فيصبح الاعتماد على ما جيء في

هذه الروايات من حوادث التاريخ مثل الاعتماد على أي كتاب من كتب التاريخ من حيث الزمان والمكان والأشخاص، إلا ما تقتضيه القصة من التوسع في الوصف مما لا تأثير له على الحقيقة"[33]، يفسّر هذا التصريح على أن التاريخ يكون سلطانا على الرواية، فلا تحوير لشخصياته وزمانه وأمكنته، وتكون غاية الرواية ربط القراء بماضيهم، وتوجيه جهد الرواية نحو التعليم والمطالعة، وهذا راجع إلى الحقبة التي ظهرت فيها هذه الأعمال.

ويؤكد مرة أخرى وفاءه للتاريخ باعتباره مرجعا مهما" ونعني بها تمثيل التاريخ ووقائعه تمثيلا يشخص تلك الوقائع تشخيصًا يقترب من الحقيقة، تتأثر منه النفس فيبقى أثره في الحافظة"[34] فيكفي-حسب زيدان- أن يطالع القارئ رواية تاريخية، يجد فيها كل الحوادث كما هي، مما يجنبه عناء العودة إلى كتب التاريخ.

ويبقى التاريخ في هذا المستوى هو الأساس الذي يعود إليه المبدع باعتباره يشكل حياة الأفراد والأشخاص، إذ ينظر إليه الناقد حسين خمري بصفته" المورد الأسمى لكل أشكال السرد، والنماذج العربة والعالمية كثيرة في هذا المجال، وأظن هذا يعود إلى طبيعة تكوين الحقول التاريخية وتنوعها بالإضافة إلى أنه يشترك مع الأشكال السردية في تعامله الخاص مع الزمن، بالإضافة إلى استعماله للزمن كمحرك أساسي للنص"[35].

4-2- طريقة تخييل التاريخ:

تمت الإشارة في العنصر السابق إلى أن الموقع الأول يكون عن طريق توظيف التاريخ بطريقة مباشرة، ومنه أتت الرواية التاريخية التي يشكل التاريخ جزءا مهما من مادتها، أما في هذا العنصر فسنحاول الوقوف على تقنية أخرى يكون حضور التاريخ فيها مشعّا بدرجة أقل.

فكما هو معلوم التاريخ علم، فكيف يتحول إلى متخيل؟ يلامس الواقع ويبتعد عنه في الآن نفسه؟ أي يصبح في منطقة ثالثة واقعة بين الوجود والعدم.

يتأسس هذا النمط من الكتابة أو إدراج التاريخ في النص الروائي انطلاقا من فرضية يقدمها الكاتب محاولا إعادة خلق نمط جديد من آليات التوظيف " فالمادة التاريخية المتشكلة بواسطة السرد قد انقطعت عن وظيفتها التوثيقية والوصفية وأصبحت تؤدي وظيفة جمالية ورمزية، فالتخييل التاريخي لا يحيل على حقائق الماضي ولا يقرّرها، ولا يروّج لها، إنما يستوحيها بوصفها ركائز مفسّرة لأحداثه، وهو من نتاج العلاقة المتفاعلة بين السرد المعزز بالخيال والتاريخ المدعم بالحقائق والوقائع، لكنه تركيب ثالث مختلف عنهما"[36]، فالتاريخ يأخذ في هذا المقام بعدا آخر؛ إذ يعيد المؤلف تركيبه وفق مميزات الجنس الأدبي

الذي يكتبه فينتج لنا شيء آخر يختلف عن السرد المعزز بقوة الخيال والتصوير، والتاريخ الدال على وقائع وحقائق ما.

يتبلور التاريخ وفق هذه التقنية ليصبح ذا بعد آخر فهو يقع ضمن منطقة ثالثة تقع في "منطقة التخوم الفاصلة بين التاريخي والخيالي، ، فينشأ في منطقة حرة ذابت مكوناتها بعضها في بعض وكونت تشكيلا جديدا متنوع العناصر"[37]، فالرواية هنا لا تحاكي أو تعيد كتابة التاريخ بكل دقة وأمانة-كما في الرواية التاريخية-، وليست مجرد خيال مجنح- كما في التيار السريالي-أو منافية للواقع، إنما تقوم بأخذ بعض جزئيات التاريخ، وتعيد تشكيلها من جديد بعد تطعيمها بأمور افتراضية قد تحدث، أو ما يتمنى الكاتب أنها قد حدثت وأُغفلت لسبب ما، فنحصل على نص يؤدي وظيفة جديدة.

تعمل الرواية في هذا المنحى على استعارة حدث ما من بين مجموعة معينة من الأحداث، لكنها لا تعطي التاريخ قيمة كبيرة ولكن تقوم " باستعارة لشيء صار جزءا من الذاكرة الجمعية، ووظيفته في النص الروائي هي أقرب إلى الإيهام والاحتمال البعيد منها إلى الحقيقة الثابتة لهذا فاختيار هذه الحقيقة ومساءلتها خارج السرد يعد ضربا من الاستحالة "[38]، فالرواية وفق هذه النقطة تقتنص لحظة ما من تاريخ الأمة قد لا ننتبه لها إلا في ثناياها وتعيد صياغتها سرديا بواسطة آلياتها، ولا يطلب من هذه المادة المنجزة في شكل جديد أن تقود الى حقيقة ويُعتد بها لتكون مرجعا يمكننا العودة إليه لتفسير أو تحليل ظاهرة ما.

قد يتعامل الروائي مع التاريخ انطلاقا من رغبة ملحة يهدف من خلالها الى تبيان ما يريد أو ما أراد من ذلك الحادث وكأنه يحاول تغيير ما قد حدث فيلجأ الى هذا الضرب من الكتابة فكما هو معلوم فالروائي في نهاية الأمر هو فرد من أمة له أحلام وآراء مما يجعله "يتخيل أحداثا تاريخية ممكنة في إطار تاريخي حقيقي، فالحكي ينطلق من كليات المادة التاريخية، والتخيل ينشغل بإنتاج ما يملأ ذلك الإطار من تفاصيل وجزئيات"[39]، من خلال هذه الخطوة يسعى الى إقامة حوار بين التاريخ والجانب الفني الجمالي.

فهذا المرجع الذي تعود له الرواية ولا تحترم بعض خصوصياته إنما هي في واقع الأمر تحاول أن تقيس بعض معطيات العصر على الماضي، أو تحاكم و تدين بعض اللحظات أو تبدي رؤية معينة وبخاصة إذا توالت نفس الأحداث لكن في سياقات معينة.

إن الرواية في تعاملها مع التاريخ ضمن هذه الآلية تسعى إلى طرح أفكار ورؤى وقناعات جديدة تعبر عن لحظة آنية تُفهم من سياق محاورة الماضي وإسقاطه على الحاضر، أو إيجاد رؤية استشرافية للمستقبل.

فهذه الطريقة لا تحرف التاريخ، إنما تقدمه بعيدا عن طابع التقريرية والوفاء الحرفي لحوادثه كما في الرواية التاريخية وذلك في إطار تقديم مجموعة من القراءات للحدث الواحد فيُشحن التاريخ باعتباره رمزا بدلالات متعددة، أو يحتمل أن يكون ذا وظيفة جديدة بهدف إلى سد بعض الفجوات التي حدثت وأغفلها المؤرخون، أو تجاهلوها عن قصد أو سقطت منهم.

ومهما يكن فهذه التقنية قد شاعت في العصر الراهن، والمدونة الروائية الجزائرية –على سبيل المثال لا الحصر- أضحت تحفل بهذه التقنية، إذ أضحت الرواية بواسطتها غير "مقتصرة على فهم الواقع من خلال نقل المعلومات والحقائق أو تفسير الظاهرة أو وصفها بل إن المعرفة الروائية نتيجة المخيلة والتخيل وإمكانات التشكيل تتسع وتتشعب لتدفع القارئ إلى التذكر والتأمل والمعرفة والمقارنة والقبول أو الرفض"[40]، وبخاصة إذا حملت الرواية للقارئ أحداثا تاريخية جديدة بالنسبة لما تعلمه أو كان يعرفه ويعتقد أنه شيء مفروغ منه وهو بمثابة المقدس بالنسبة له أو كان يظن أن الحقيقة هي ما تقرره الجهات الوصية.

3-4- طريقة تطويع وتحوير التاريخ لخدمة موقف الكاتب:

في هذه التقنية تسعى الرواية إلى إعطاء بعد جديد للتاريخ جاهدة لتبيان المضمر والمهمش من التاريخ، لكنها تبثه في قالب فني جمالي يتجاوز معطيات الواقع، ويمس بالمتعارف عليه ويعيد خلق بنيات جديدة.

يحدد الباحث محمد سالمي أبرز هذه النقاط من خلال ما يقدمه عن جملة أحداث تاريخية استثمرتها الرواية بطرق فنية عديدة[41]:

– استدعاء مجموعة من الحوادث رفقة شخصياتها وتطويعها لفائدة الحكي بُغية معرفة الحاضر عن طريق إنشاء عوالم متخيلة، إذ تحاول الرواية عن طريق هذا التاريخ إجراء مقارنة بين الماضي والحاضر.

– توفير مناخ تاريخي تقوم فيه مجموعة من الشخصيات الغير تاريخية، بأعمال متخيلة تهدف مناقشة فترة زمنية معينة، تخضع لمنظور الكاتب وفق المتخيل، وتسهم هذه الرؤية في

تقديم موقف محدد أو تكون شاهدة على ما تم إغفاله -رغم عدم وجودها في الواقع- وفي الأخير نحصل على درس مهم لتفسير الحاضر.

– إحضار نوع سردي قديم، وتقديمه بوصفه شكلا والاعتماد عليه لإنشاء المادة الروائية، وتتدخل بعض تقنيات هذا النوع في قواعد الخطاب الروائي، كالسير الشعبية، والأخبار والمقدمات وقصص البطولات وغيرها.

– تقديم قراءة للحوادث التاريخية من خلال جزئيات محددة، أو من منظور البسطاء الذين عاشوا فترة معينة، فكما هو معلوم فالتاريخ الرسمي لا يركّز إلا على طبقة فاعلة، ويهمل الطبقات الفقيرة، فتلجأ الرواية إلى بناء مرجعيتها وفق حياة الناس الشعبيين.

– عدم الميل والاستسلام للتاريخ الرسمي، والاعتماد على الكتابات المضادة، وشهادات المعارضين والمهمشين، فتكشف الرواية المسكوت عنه، فتخلق تاريخا موازيا أو تقدم نفسها كبديل له.

تجنح الرواية التي تتكئ على التاريخ في هذه الحالة إلى إثارة بعض القضايا ذات الصلة بالحياة السياسية، أي في الغالب تبعث المحظور في قالب مشحون بالرمز أو مكثف دلاليا حتى لا يثير الشبهة.

وقد التفت إلى هذا الأمر الباحث عبد الرزاق بن دحمان في أطروحته " الرؤية التاريخية في الرواية الجزائرية المعاصرة -روايات الطاهر وطار أنموذجا-" فيرى أن بعث التاريخ للمحظور وتطويعه لفائدة الرواية، يتجلى وفق تقنيات ثلاث[42]:

- ✓ مبدأ الاختيار؛ وفيه تظهر كيفية تلقي الروائي للتاريخ، فتشتغل الرواية على مرحلة تاريخية، أو توظف شخصية تاريخية محل جدال، ويهدف هذا الاختيار إلى تمرير خطاب إيديولوجي أو معرفي، يقلب المعرفة المتداولة حول التاريخ، ويكون في المحصلة نقدا لمرجعية ما، فهذه الشخصية المستوحاة تطرح رؤية أو موقف تفنده من خلاله المرويات الرسمية.
- ✓ مبدأ التحويل؛ يتم تطويع التاريخ وتحويله وذلك عن طريق تفكيك مجموعة من البنيات المغلقة إلى بنيات تخييلية صرفة فيغدو التاريخ مسرحا مفتوحا، تحاول الرواية إعادة قراءته وفق منظومة معرفية أو فكرية جديدة، فتصبح الشخصية التاريخية مجرد شخصية ورقية، تنجز أفعالا كلامية مرتبطة أو مرتهنة بطاقة الحكي الجمالي التخييلي على حساب التاريخ، فيغلب في هذه الحالة العنصر التخييلي على العنصر التاريخي.

✓ مبدأ التأويل؛ إذ تُعطى الأولية للعمل الروائي المؤسس على دينامية مختلفة عن العمل التاريخي، فتؤسس مختلف القضايا المطروحة انطلاقا من الماضي، هدف الرواية هو تحرير التاريخ من السيطرة الأحادية، إذ يتحول التاريخ إلى قراءة مضادة كاشفة عن تحولات السلطة والواقع، إذ تواجه الرواية الجانب الصامت والمغيب في دهاليز المسكوت عنه.

خاتمة:

يمكن أن نخلص مما سبق إلى مجموعة من النقاط:

– التاريخ علم منهجي له حدوده ومجالاته، يتسم بالموضوعية والصرامة العلمية.

– الرواية تشترك مع التاريخ في طابع السرد، فكلاهما يحتاج إليه لتوجيه الأحداث.

– يلتقي المؤرخ مع الراوي في بعض الجزئيات، لكنهما يختلفان في جوهر العمل وماهيته.

– تختلف مستويات ظهور التاريخ في الرواية حسب طبيعة كل كاتب، لكن تكاد الروايات العربية والجزائرية تحفل بهذا العنصر، فما مرت به الشعوب عبر تاريخها الطويل، وفرّ مادة أولية لا بأس بها، لتكون الرواية خير من يستفيد منها عكس باقي الأجناس الأدبية الأخرى.

– يعتبر التاريخ إحدى المحركات الأساسية في الكتابة الروائية ومنطقة خصبة لتوليد المعنى والدلالة.

– يوفّر التاريخ غطاءً لا بأس به للرواية في اكتناه ماهيتها ووجودها، فيغدو رمزا وقناعا للتعبير عن مواقف ورؤى وإثبات قضايا، إنه تعبير عن الكينونة والذات والهوية.

– الرواية في نهاية المطاف هي تشخيص لواقع ما، هذا الواقع هو جزء من تاريخ الأمة، وما الإحالات والرموز الظاهرة فيها إلا تعبير عن سيرة حياة.

الإحالات والهوامش:

[1] - جوردن شايلد: التاريخ، تر: عدلي برهوم عبد الملك، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط1، 1958، ص 115.

[2]- مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، ط4، 2004، ص 13.

[3]- محمد بن منظور: لسان العرب، تح: عبد العلي الكبير، دار المعارف، القاهرة، مصر، د.ط، د. ت، ص 58.

[4]- Noelle parquin et autres :dictionnaire philosophie, edition armande colinie, Paris ,France ,2007, P163.

[5]- شكري عزيز ماضي: في نظرية الأدب، المؤسسة الوطنية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط 1، 2005، ص 145.

[6]- فيصل دراج: الرواية وتأويل التاريخ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2004، ص 81.

[7]- عبد الرحمان بن خلدون: المقدمة، دار الجوزي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط 1، 2016، ص 14.

[8]- فيصل دراج: الرواية وتأويل التاريخ، ص 82.

[9]-عبد الله العروي:مفهوم التاريخ(1- الألفاظ والمذاهب،2- المفاهيم والأصول)المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء المغرب، ط 1، 2005،ص 3.

[10]-عبد الله العروي: ثقافتنا في ضوء التاريخ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط 2، 1988، ص 9.

[11]- سيد قطب: في التاريخ -فكرة ومنهاج-، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط1، 1984، ص 37.

[12]-جناة بلخن: السرد التاريخي عند بول ريكور، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2013، ص 50.

[13]- عبد الله إبراهيم: التخيل التاريخي –السرد والامبراطورية والتجربة الاستعمارية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، لبنان، ط1، 2011، ص11.

[14]-ميلان كونديرا: الستارة، تر: معن عاقل، ورد للطباعة والنشر، دمشق، سوريا، ط 1، 2006، ص 60.

[15]- عبد الرزاق بن دحمان: الرؤية التاريخية في الرواية الجزائرية المعاصرة-روايات الطاهر وطار أنموذجا-، أطروحة دكتوراه دولة، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآدب واللغات، جامعة الحاج لحضر باتنة، الجزائر، 2013/2012، ص 17.

[16]-حبيب مونسي: الرواية والتاريخ -عندما تطمح الرواية أن تكون بديلا للتاريخ -قراءة في رواية الأمير لواسيني الأعرج موقع أصوات شمال ، 2009/11/12.

[17] - نادر كاظم: تمثيلات الآخر-صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت لبنان، ط1، 2004، ص55.

[18] - المرجع نفسه، ص 55.

[19] - إدوارد سعيد: الثقافة والامبريالية، تر: كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط3، 2004، ص58.

[20] -حبيب مونسي: الرواية والتاريخ.

[21] - فيصل دراج: الرواية وتأويل التاريخ، ص 10.

[22] - شكري عزيز ماضي: في نظرية الأدب، ص 146.

[23] -المرجع نفسه، ص 146.

[24] - المرجع نفسه، ص 149.

[25] - المرجع نفسه، ص 149.

[26] - ينظر: المرجع نفسه، ص150.

[27] - ينظر: المرجع نفسه، ص 151.

[28] - فيصل دراج: الرواية وتأويل التاريخ، ص 9.

[29] -مخلوف عامر: توظيف التراث في الرواية الجزائرية(بحث في الرواية المكتوبة بالعربية)،منشورات دار الأديب الجزائر،د.ط، 2005،ص 16.

[30] - جورج لوكاتش: الرواية التاريخية، تر: صالح جواد الكاظم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ط 2، 1986، ص 89.

[31] - سعيد يقطين: قضايا الرواية العربية الجديدة-الوجود والحدود-منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2012، ص 159.

[32] - محمد رياض وتار: توظيف التراث في الرواية العربية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا د. ط، 2002، ص 104.

[33] - عبد الله إبراهيم: السردية العربية الحديثة-تفكيك خطاب الاستعمار وإعادة تفسير النشأة-المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط 1، 2013، ص 253.

[34] - المرجع نفسه، ص 255.

[35] - حسين خمري: فضاء المتخيل – مقاربات في الرواية-، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2005، ص 94.

[36] - عبد الله إبراهيم: التخيل التاريخي –السرد والامبراطورية والتجربة الاستعمارية-، ص 5.

[37] - المرجع نفسه، ص 06.

[38] -المرجع نفسه، ص 11.

[39] - آمنة بلعلى: الرواية الجزائرية بين تخييل التاريخ وتأويله، أبحاث ملتقى الباحة الأدبي الخامس، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ط 1، 2013، ص 257.

[40] - إدريس الخضراوي: الرواية العربية وأسئلة ما بعد الاستعمار، رؤيا للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2012 ص157.

[41] - ينظر: محمد سالمي: جدلية الفني والتاريخي في رواية كتاب الأمير لواسيني الأعرج، رسالة ماجستير، قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، 2015-2016، ص31-32.

[42] - ينظر: عبد الرزاق بن دحمان: الرؤية التاريخية في الرواية الجزائرية المعاصرة -روايات الطاهر وطار أنموذجا - ص32-33.

قائمة المراجع:

- جوردن شايلد: التاريخ، تر: عدلي برهوم عبد الملك، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط1، 1985.
- مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، ط4، 2004.
- محمد بن منظور: لسان العرب، تح: عبد العلي الكبير، دار المعارف، القاهرة، مصر، د.ط، د. ت.
- شكري عزيز ماضي: في نظرية الأدب، المؤسسة الوطنية للدراسات والنشر، بيروت لبنان، ط 1 2005.
- فيصل دراج: الرواية وتأويل التاريخ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب ط1 2004.
- عبد الرحمان بن خلدون: المقدمة، دار الجوزي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط 1، 2016.
- عبد الله العروي: مفهوم التاريخ(1- الألفاظ والمذاهب،2- المفاهيم والأصول) المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 2005.
- عبد الله العروي: ثقافتنا في ضوء التاريخ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط 2 1988.
- سيد قطب: في التاريخ -فكرة ومنهاج-، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط1، 1984.
- جناة بلخن: السرد التاريخي عند بول ريكور، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1 2013 .
- عبد الله إبراهيم: التخيل التاريخي –السرد والامبراطورية والتجربة الاستعمارية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، لبنان، ط1، 2011.
- عبد الله إبراهيم: السردية العربية الحديثة-تفكيك خطاب الاستعمار وإعادة تفسير النشأة-المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط 1، 2013.
- ميلان كونديرا: الستارة، تر: معن عاقل، ورد للطباعة والنشر، دمشق، سوريا، ط 1، 2006.
- عبد الرزاق بن دحمان: الرؤية التاريخية في الرواية الجزائرية المعاصرة-روايات الطاهر وطار أنموذجا-، أطروحة دكتوراه دولة، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآدب واللغات، جامعة الحاج لحضر باتنة، الجزائر، 2013/2012.

- حبيب مونسي: الرواية والتاريخ -عندما تطمح الرواية أن تكون بديلا للتاريخ -قراءة في رواية الأمير لواسيني الأعرج، موقع أصوات شمال ، 2009/11/12.
- نادر كاظم: تمثيلات الآخر-صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت لبنان، ط1، 2004.
- إدوارد سعيد: الثقافة والامبريالية، تر: كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط3، 2004.
- مخلوف عامر: توظيف التراث في الرواية الجزائرية (بحث في الرواية المكتوبة بالعربية)، منشورات دار الأديب الجزائر، د.ط، 2005.
- جورج لوكاتش: الرواية التاريخية، تر: صالح جواد الكاظم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد العراق، ط 2، 1986.
- سعيد يقطين: قضايا الرواية العربية الجديدة-الحدود والوجود-منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1 2012.
- محمد رياض وتار: توظيف التراث في الرواية العربية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق سوريا، د ط 2002.
- حسين خمري: فضاء المتخيل – مقاربات في الرواية-، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1 2005.
- آمنة بلعلى: الرواية الجزائرية بين تخييل التاريخ وتأويله، أبحاث ملتقى الباحة الأدبي الخامس مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ط 1، 2013.
- محمد سالمي: جدلية الفني والتاريخي في رواية كتاب الأمير لواسيني الأعرج، رسالة ماجستير قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، 2015-2016.
- إدريس الخضراوي: الرواية العربية وأسئلة ما بعد الاستعمار، رؤيا للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر ط1، 2012.
- Noelle parquin et autres :dictionnaire philosophie, edition armande colinie,Paris :France ,2007.